قـــارون

كان من قوم موسى وعشيرته الأقربين، يَمُتُّ إليه بسبب، وتصل بينهما رَحِم، وقد آتاه الله بسطةً في العيش، وَسَعَة في الرِّزق، وكثرةً في الأموال، فاجتمعت له أسبابُ السعادة، وفاز من الدنيا بنصيب لا يظفر به إلا قليل.

كان قارونُ ذا حَظٍّ عظيم، فقد فاضت خزائنه بالأموال، واكتظت صناديقه بها، حتى ضاق الحفَظَة ذَرْعاً بمفاتيحها، وأثقلهم حملُهَا، وناءَ العُصْبَةُ أولو القوَّة بها.

وكان يعيشُ بين قومه عيشةَ البَذَخ والترف، فكان يلبس الملابسَ الفاخرة ولا يخرج على قومه إلا في زينته، ويسكُن القصور، ويصطفي لنفسه الخدمَ، ويستكْثرُ من العبيد والحشم، ويستمتع من الحياة بما يشبع نهْمَهُ، ويروي ظمأُه، ويريد أن يصلَ إلى الغاية في النعيم، إن كانت للنعيم غاية.

والمالُ منذ الأزل، زينةُ الدنيا وبهجتُهَا، وأساسُ الحياة وقوامها، ومن اسْتَحْوَذ عليه طغىٰ وتكَبَّر، واغترَّ وتجبَّرَ، وظن أن أحداً لن يقدِرَ عليه، وخُيِّل إليه أن الناس جميعاً من طينة غير طينته، أو أنهم ما خُلِقوا إلا مُسَخَّرين له، فإذا تكلم طأطؤا رؤوسهم عند سماع صوته، وإذا أشار كانوا عند إشارته، وإذا نادى استبقوا لتلبية ندائه، وكانوا خلصاء له، أو يجب أن يكُونوا كذلك وإلا فالويلُ لمن تُحَدِّثه نفسه بالعصيان، والحرمانُ لمن يقعُد عن نُصْرته، أو يتوَاني عن تحقيق أمانيه.

لـن يكُـون قـارون بِـدْعـاً فـي الحيـاة، وإنمـا هـو كغيـره مـن النـاس، يسيـر سيرتهم ويترسم طريقهم، فبغى على قومه، وفرض سلطانه عليهم، وسامهم بَطْشَه وجبروته.

وليـتَ هـؤلاء الأغنيـاء يخَفِّفُـونَ مـن غُلَـوَائهـم، ويعـرفـون الحيـاة علـى وجههـا الصحيـح، ويتبيَّنـون منهـا الطـريـق الـواضـح، إذاً لعـرفـوا أن المـال وحـده لا يُخْضـعُ

الرقابَ، ولا يستذلُّ العِبَاد، وإنما الناسُ عبيدُ الإحْسان، يستطيعون أن يجعلوهم طوعَ بنانهم إذا أفاضوا عليهم من خيرهم، وأطعموهم شيئاً من طعامهم.

لعلّهم بذلك يستميلون القلوب، ويدفعون الكثيرَ من الشرِّ، ويجلبون لأنفسهم الخير، ويَجْمَعون الناسَ على محبَّتهم، والالتفاف حولهم؛ ولعلهم بذلك أيضاً يدركون رضا الله، فيكافئهم بثوابه، ويجزيهم بجنته، فينالوا الحسْنَيَين: حسن الأحدوثَةِ في الدنيا، وحسن الجزاء في الآخرة.

ولكنها القلوب يعْمِيها المال، والبصائرُ يذهب بها الزهْوُ والغرور، فلا ترى إلا جماعات المرائين، ولا تسمعُ إلا كلمات المنافقين، ولا تحسّ نقْمَةَ المحروم ولا لوعة المظلوم.

* * *

رأى القوم أن قارونَ سَادِرٌ في طغيانه وَبَغيه، لا هَمَّ له إلا أن يستكثر من المال وإنْ تضَوَّر غيره جوعاً، وأنْ يكْتسى من اللباس ما يزَّينُ به وإنْ رأى العُرْي فاشياً، هذا مع غرور واستئثار، وبَـطَرٍ[1] واستكْبَار.

لمَّا رأوا منهُ ذلك نقموا عليه طريقه، وحاولوا أن يُثيروا فيهِ روح الخير، وأن يُنبِّهوه على ما غاب عنه، ونصحوهُ ألا يُغويَه المالُ أو يُضِلّه، أو يحول بينه وبين الإحسان إلى قومه، وإقالةِ عَثرَةِ المحتاجين، ومسح دموع البائسين، فبذلك يكسبُ الحمدَ في الدنيا، وينالُ الثوابَ في الآخرة، وهذا خيرٌ من المال وأبقى.

وقالوا: إنا لا نريد أن تنفضَ يدك من الدنيا وزينتِهَا، وتتجافى عن مبَاهجها وتنأى بنفسك عن الاستمتاع بها، فذلك ما لا نريده ونأباهُ، وإنما نرى لك رأياً فيه خيرٌ لنا ولك، هو أنك تقصد إلى الطيب من الرزق، والحلالُ من المتاع، فارشف من مَنْهَله، وخُذ فيه كما تشاء.

على أن لا يشغلك ذلك عن الفقراء، ولا ينْسِيك المحتاجين، فأحْسِنْ إليهم كما أحسنَ الله إليك، ليحفظَ عليك نعمتك، ويزيد في مالك، ويُضْفي عليك خيره وبركته.

---

(١) البطر: كفران النعمة.

على أن المال ظِلٌّ زائل؟ وَوَديعةٌ مستردّةٌ، فلا تفرح بما أوتيت، ولا تغترّ به، واتخذه وسيلةً لقضاء مآربك في الدنيا، وسبيلاً إلى سعادتك في الآخرة، وما حَملنا على إسداء النُّصْح إليك إلا حُبُّنا لك، ورَغبتُنَا أن يُبقي الله فضله سابغاً عليك، وخوفُنا أن يَسْلبَ الله مالك أو يحرمك جَنَّتَه.

وأنى للطاغية أن تتفتَّح آذانه للنصيحة تُلْقى إليه؟! ومَنْ للمستكبر ينال النصح من نفسه ويمسّ شغَاف قلبه؟

إن قارونَ قد أشْرِب قلبه حبَّ المال، وزاده الغنى عُلُواً واستكْباراً، فليس لمثل هذا الكلام سبيل إلى نفسه... فمن هؤلاء الذين يشيرون عليه فيأتمر؟! وتتطاولُ أعناقُهم إلى نُصْحِه فينتصح!

إنهم لا شك قد استباحُوا حماه، ووضعوا أصابعهم فيما لا يعنيهم من أمره بل إن هذا من أموره الخاصة!!

لذلك كان جافياً في ردّه إذ قال: لستُ بحاجة إلى نصحكم، فأنا أرجحكم عقلاً، وأسَدُّكم رأياً، وما أوتيتُ هذا المال، إلا لأني به أجدر وأحق، فاحتفظوا بهذه النصيحة لأنفسكم، وقوّموا بها أموركم، أما أنا فخيرٌ منكم مقاماً وأكثر عِرفاناً.

وأراد أن يزيد في إيلامهم، فخرج على قومه في زيفته، يُدِلُّ بما أعطاهُ الله من خير وفير، ومال كثير.

ورآه المستضعفون من قومه يَرْفل في الثياب الجميلة، ويركب المراكب المَطهَّمَة، وحوله الخدم يَحُفُّونَ به، فأحدقت به العيونُ، واستشرفَ الناسُ لرؤيته، وحزَّ في نفوسهم أن يَرَوْهُ في هذا النعيم، وهم في ضنك ويُؤْس مُقيم وتحدَّثَ بعضهم إلى بعض يقولونَ: يا ليتَ لنا مثلَ ما أوتيَ قارون إنه لذو حظ عظيم!

ولما كانت النصيحةُ مع مثله لا تُجْدِي، والنَّسَب لا يكفي عنده سبباً لعطف القلوب، ومنظرُ البؤس لا يستميلُ النفوس، والفقر لا يستجيب إلى دعائه مجيب، فليسِلَّ سيفُ القانون لينفذَ إلى تلك الحجب الكَثيفة، فيهتك ظلماتِهَا، ويزيل ما تراكم عليها، فتنبعث للخير، وتميل للإحسان.

ليعلن إليه موسى في شدّةٍ وإصرار أن يؤدّيَ زكاةَ ماله، وأن يحسن إلى الفقراء، ففي ماله حقٌّ معلوم للسائل والمحروم.

ولكن قارون قد طبع الله على قلبه، وران عليه شُحُّه، فلم يَصْغ إلى دعوة موسى، بل هزىء به وسخر، ورماه بالبُهتان، وردَّ حديثه في عنف وسخرية، فقال: قد احتملنا منك ما احتملنا، فقد جئتنا بدين جديد، فجاريناك فيه، وأمرتنا بكَذا وكَذا فاستمعنا لأمرك، فأطمعك ذلك فينا، وجَرَّأك علينا، فلم يبقَ إلا المالُ تسلبه، والثروة تريد أن تستحوذَ عليها، لقد أسلمنا لك القلوبَ وأخضعنا لك الرقاب؛ ولكن هيهات أن نسلم لك من القلب سُوَيدائه، ومن الطرف سَوَاده؛ إنك بهذا قد دللْتَ على كذبك، وكشفتَ ما حاولت سترَه من أمرك، إنك لساحر كذاب!!

وحاوَرَ قارون وداوَرَ، وأصر موسى وقاوم، فهذا أمرُ الله لا يحتملُ الجدل ولا المساوَمَة، وخضع قارون بعد لأْيٍ وعلى مضض!

ورجع إلى بيته يحسب ما ينالُ الفقراء من ماله، فهاله ما وجد، وأفزعه ما رأى، فرجع إليه داؤه، وتملكه شحه، وأراد أن يمسك المال حتى لا يرى نفوساً بائسه يدخل إليها النعيم والسرور، واحتال للأمر فأذاع ذائعة السوء، فقال: إن موسى إنما يلبس ثوب الرياء، ليكُون له من ذلك عَرَضُ الدنيا وزينة الحياة، ولو فتشنا عن مكْنون سِرَه، وما يختلج في ضميره لوجدناه أبعد الناسِ من الدين وأقصاهم عن الله.

وحاول بالمال أن يَفتن الناس ويصرفهم عن موسى، ويزلزل عقيدتَهم؛ ولكن الله كشف ما أضمر، وأظهر ما أخفى، وخرج موسى من هذه التجربة أصفى نفساً، وأعلى مقاماً.

ولما يئس موسى من صلاحه دعا الله أن يُنزل به عذابه، ويُخلِّص الناسَ من فتنته وإغوائه.

فاستجاب الله لدعائه، وخسف به وبداره الأرض، فما كان له من فئة يَنْصُرُونه منْ دُونِ الله ومَا كانَ مِنَ المنْتَصِرين.

وابتلعته الأرض، وساخت فيها أمواله وقصوره، فكان عِبْرَةً لقوم موسى والمستضعفين من أتباعه، ولما رأى القوم ما حلّ بقارون رجعوا إلى أنفسهم نادمين على ما

كان منهم، وحمدوا الله على أنهم لم يكُونوا مثله، وقالوا: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾[1].

* * *

(١) سورة القصص، الآيتان: ٨٢ و٨٣.